

فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

١٠ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فلسفة نيتشه Nietzsche

١٨٤٤ - ١٩٠٠

للأستاذ خليل هندأوى

« عملت على إيجاز كتاب « فلسفة نيتشه »
للأستاذ (هنرى ليشناتيرجر)
(خ . ٥)

- ١ -

نيتشه هو ممثل الفكرة الألمانية الجارية في تاريخها الحديث كما كان « بسمارك » رجلها الحديدي في السياسة . فها وإن اختلفت منازعها وتباينت الحقول التي غرسا فيها ، فما غرس الاثنان إلا بذور القوة والارادة في شرب تلقت دماؤه وأفكاره بمصل القوة والارادة .

هنالك كلمة تسطرها براعة الفلاسفة والنقاد وتشغل مكاناً من المصر الحديث . هذه الكلمة هي كلمة « الانحطاط الاجتماعي » وفلاسفة الاجتماع لا يرون في هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن اصلاح الفاسد فيه ، أو اعوجاجاً يمكن تقيمه ، بل هو داء عضال قد تأصل في عجم البشرية وعمى في لحمها وعظمها ودماها فهو لا يذهب إلا بذهايبها ولا يتلاشى إلا بانقراضها . ومن هؤلاء المغالين في تشاؤمهم « فردريك نيتشه » الذي نازل العالم كله وحده ، وهدم المقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها .

- ٢ -

الشخصية في نيتشه

إن من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تلاميذه « كذهب محمود » لأن الرجل لم يعمل على أن يؤلف مدرسة فلسفية ، ولم يكن لمثل عقله الوثاب أن يقيد نفسه بقيود ضيقة ؛ وإنما هو الثورة التدفقة التي لا تعرف نظاماً ولا انتظاماً يملك عليها الاضطراب في اندلاعها ، ويملك على عقله التناقض حتى في الفكرة الواحدة . وإنما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته « الناحية الفردية والشخصية » وهي أبرز نواحي فلسفته جلاء وقوة ،

لأنها ابنة طبع خاص ، وهوى صادق مستقيم
إن فلسفة « نيتشه » فلسفة تتجلى فيها « الذاتية » النقطة
عن الناس . « ماذا يقول لك شعورك ؟ يجب أن تكون كما أنت ،
فينبغى للإنسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسه ، وأن يعنى
بحياته كما تريد ذاته وشخصيته ، وأن يفتنم من الفرص أحسن
ما يفتنم ، ومن المصادقات ما يحقق مطامعه ، ويقرب غايته . وأن
يصحح - بقدر ما يستطيع - هذه الطبيعة بالفن ، ليتسنى له أن
يظهر ذاته ويمث حياته . كل يفترف من هذا المذهب بحسب
غريزته وطبيعته ؛ إذ لا قواعد ولا أساليب معدودة تصنع لكل
إنسان نفسه . فذهب « عدم المساواة » بين الناس هو من
مبادئ نيتشه . إذ ينبغى لكل إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته
وهدفه وفضيلته ؛ فما كان صالحاً للواحد قد يكون ضاراً للآخر .
وما كان ضاراً للواحد يكون صالحاً للآخر . وكل ما يستطيع
المؤرخ أن يصنعه هو أن يقص تاريخ نفسه ، والطريقة التي
اكتشف بها نفسه ، والابحان الذي وحيد به راحة نفسه . وأن
يكون الشال الذي يقتسدى به معاصروه للوصول إلى عوالم
أنفسهم . . . ولكنه ليس له بعد هذا كله من مذهب أو من
طريق . لأنه لا يود أن يكون راعى قطع خاضع ذليل
(يقول « زرادشت » لرفاقه الامناء : « إنني وحدي أذهب
يارفاق . . . وأنتم وحدكم اذهبوا . . . أنا أريد ذلك
في الحقيقة أعطيكم هذه النصيحة . ابتعدوا عني كثيراً ،
واحموا أنفسكم من زرادشت . . . وخير لكم أن تحجلوا منه
أتم تقولون : إنكم مؤمنون به ولكن ماذا يهمه إيمانكم ؟
أتم المؤمنون به ، ولكن ماذا يهمه كل المؤمنين ؟
أتم لم تفتشوا بعد عن أنفسكم ، ولذلك وجدتموني . هكذا
يقول كل المؤمنين ، ولهذا أرى أن كل إيمان هو شيء ضئيل .
والآن أمركم بأن تفتشوا لتجدوا أنفسكم ، وعندما تكفرون بي
أعود إليكم في تلك الساعة . . . »)

يتميز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفية بأنه لا يخاطب
العقل وحده كما يفعلون ، بل يخاطب الإنسان بأسره عقلاً وجسداً .
فما التفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تبيت بها قوة خفية كامنة
تصرفها كما تشاء إلى أين تشاء . « إن وراء أهوائك وعواطفك
- يا أخي - سيداً « قادراً » وعاقلاً مجهولاً يسمى « الذات » يسكن
جسدك ، وإنما هو جسدك ، فالجسد بما يضم من أعضاء وبما

ويسيطر بعيدة . وكأنه جبل من طينة غير الطينة البشرية . لا يهوى الضعف ولا الاستكانة ولا يعيل إلى الاستسلام . واملّ الكاتب الداعركي « ابن » قد رسم شخصية نيتشه في روايته التمثيلية « الراعي يراند » الذي كان رجل كل شيء أو لا شيء . يعيش في طريقه لا يصدده شيء ولا يقفه حائل . لا يشفق على نفسه ولا على غيره . يضحى - بدون وجل - بسعادته في سبيل تميم لإرادته ؛ يعيش ولا يتسرب اليه الضعف ، دأى القدم ، محطم القلب . مخترقاً سبيله ، بطالاً أبسل في كل ما يخترق . ولا يزال هذا دأبه حتى يريحه الجنون ، وترجمه المنون « مثل نيتشه مثل هذا الراعي رجل كل شيء أو رجل لا شيء . يذهب بإرادته لا يصدده صادٌ ولا يمنعه مانع . وقد تكون هذه البطولة - عند نيتشه - أحد عوامل سروره . كما يكون الاستشهاد عند من يقضى في سبيل وطنه . على أن هناك « نفوساً شاذة » في هذا المجتمع ، ممن يقدر لها أن تحارب التعالم وهي تلم أن في هذه الحرب شقاءها وبلاءها ، تراها مضطرة بطبيعة حالها إلى أن تكون ذات قلب شديد وإرادة فولاذية ، تستعين بها على اقتحام المصاعب ومثل هذه البطولة بطولية المجاهد الذي تصلب إرادته ، وتتحجر عزيمته وهو - خلال ذلك - مفتقر إلى صداقة تسعفه وتساعده ، ومن عسى يتخذ صديقاً من بين هذه « المخاليق الناقصة » ولكنه اتخذ أصدقاء يقبل بكالمهم ويؤمن بمثلهم ويفضى طرفه عن نقصهم ، وقد صور في مطلع حياته بعض صور أصدقائه نامة كاملة كأنها مثل الأعلى ، وبهذا وجد في « شوبنهاور » أسمى مثل للفلسفة . وفي « ريشارد فاخيز » أسمى مثل للفن . وإذا هو وجد في صحبة هؤلاء راحة نفسية فانه وجد في نهاية هذه الصحبة ألباً طالما أمضه وعذبه . ومبمث هذا الألم أن الفيلسوف ظل ساعياً دائماً وراء الانسان الكامل الذي يمثله له مثله الأعلى . فكان - لذلك - في نزاع مستمر مع نفسه ، وقد كلفته هذه الصداقة كثيراً ، لأن مثله الأعلى يقضى عليه بأن يضحى بها . فحرب كثيراً أن يفض الطرف عن نقص صديقيه ، وألا ينظر فيها إلا مثلاً أعلى للكامل الانساني ، ولكن إرادته غلبت في النهاية على الصداقة . فتذوق من الصداقة مرارتها كما تذوق حلاوتها . . . وهكذا آب إلى عزله لأن طبيعته تدعوه إليها

فيل هشاردي

(تجمع)

يحتوي على إرادة القوة ، ذا ما يدعوه نيتشه « العقل الكبير للانسان » وان العقل الحقيقي - وحده - ناقص سريع المطب . تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها . فاذا أهاد انسان أن يؤثر في آخر فهذه الذات الخفية وحدها يمكنه أن يؤثر . وكل شيء سواها باطل . ومن اللغو أن تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية ، أو تحدد العقل بالمقاييس التي اخترعها العقل . وإنما هذه الاحكام المنظمة « مجموعة التقاليد المقدسة » محددة الخبير والشعر ، والجيل والقبائح ، هي أحكام موضوعة لا ظل لها من حقيقة ، ولكن الانسان هو واضعها ومقدسها . وخيرم من ساعد على نشر « ذاته » وشخصيته . فالكتاب - مثلاً - ان هو إلا فعل يقوم بقيام شخصية صاحبه ، وبكياته الكامل . فهو ليس بمفكر غسب بل هو نبي . . . لا يقول للناس « أنا أحمل اليكم الحقيقة العالمة غير المتعلقة بذاتي . ولكنه يقول « ها أنا بما في من إيمان وحقيقة وخطأ ، كما أنا . أقول (نعم) للكون ، لكل أفراده وآلامه . فانظروا إن كنتم تجدون أيضاً سعادتهم في هذه الآراء التي وجدت فيها سعادتي » ، وبيننا بروح غيره من الفلاسفة متباهين « بانسلاخهم عن شخصيتهم ترى نيتشه يجمل من شخصيته مدار فلسفته . . فلسفته في الحقيقة هي تاريخ نفسه . وزرادشت النبي الذي كتب عنه نيتشه بلهجة شعرية مؤثرة هو ذات نيتشه بما يجول في ذاته من رغائب وآمال وأحلام ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته

- ٣ -

صفحة من حياة الأروى

ولد نيتشه عام ١٨٤٤ من أسرة يعتقد بأنها أسرة بولونية قديمة ألبها إلى ألمانيا ما ألبها . نراه في حدائته مثال السيطرة والاعتماد على الذات وقهر الآلام الجسدية . وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصدقائه برغم ميله الطبيعي إلى العزلة ، صارماً في معاملته . لا يعيل إلا إلى من بلائم هواه ويوافق مزاجه ولا ينفرد إلا بمن طفت الرداة والشراسة على خلقه . صارم في حديثه ، جاد في مزحه . لا يهوى المزح الكاذب مهما كان عنصره . لأن خروج الرجل عن طبيعته في الحياة الخاصة يخرج عنه ما يخرج في الحياة العامة . لا يطيب له مجلس العوام ولا الدخول في حلقاتهم . وإنما هو في حياته كما يمثله لنا كتاباته إرادة فولاذية